

المرأة الصليبية دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام

طه الطراونه^(١)

(١) قسم التاريخ، كلية الاداب، جامعة مؤتة، الأردن

تاريخ قبوله للنشر ١٩٩٢/٤/٦

تاريخ استلام البحث ١٩٩١/٩/٢٣

ABSTRACT

This study aims at uncovering the European womans's attitude towards the Crusading movement and her participation in the early military expeditions against Syria (Bilad Al-Sham). Also, it deals with the Frankish woman's role and position in Outremer as well as her religious life and the Frankish marriage law.

ملخص

تهدف هذه الدراسة الى تسليط الضوء على موقف المرأة الاوروبية من الدعاية الصليبية ومشاركتها في الحملات العسكرية الى بلاد الشام وما تعرضت له من معاناة. وتحاول كذلك الوقوف على دور المرأة الفرنجية ومكانتها في ذلك المجتمع الغريب الذي استقر في بلاد الشام بعد تأسيس الامارات الفرنجية مبينة كيفية وصول المرأة النبيلة الى السلطة والظروف التي عاشتها والمصاعب التي واجهتها. وتسعى ايضا الى الكشف عن دور المرأة الاعتيادية ومكانتها في ذلك المجتمع على الرغم من قلة المعلومات المتاحة حول ذلك. هذا بالاضافة الى ابراز كل من الحياة الدينية للمرأة الفرنجية ونظام الزواج في المجتمع الفرنجي.

لا بد قبل الشروع في تناول هذا الموضوع من التذكير بأن المجتمع الفرنجي ، كان قبل غزوه للعالم الاسلامي جزءا من اوروبا في العصور الوسطى ، سكانا وثقافة. ذلك لأن الصليبيين اقتحموا العالم الاسلامي غزاة محاربين في المقام الاول، فقد كان مجتمعهم مجتمعا عسكريا بكل ما تحمله الكلمة من معنى . ولذلك فقد كان يختلف قليلا عن المجتمع الام في اوروبا رغم تبنيه نظام الاقطاع الاوروبي وحمله للافكار الاوروبية السائدة حينئذ .

ولا بد كذلك من الاشارة الى شح المعلومات المتاحة حول هذا الموضوع ، وتمركز اكثرها حول نساء الاسرة المالكة والعائلات النبيلة ، الامر الذي وقف عائقا امام بحث اوضاع المرأة في طبقة العامة بصورة اوفى .

تعتمد هذه الدراسة بالدرجة الاولى على اصول غربية سواء اكانت مصادر اولية ام دراسات حديثة وذلك لاستجلاء الموقف الفرنجي ، الديني والعلماني تجاه المرأة ، وللوقوف على مكانتها وعلى مجمل الظروف التي عاشتها في مجتمع غاز هاجم العالم الاسلامي واستقر فيه غربا لمدة قرنين من الزمن .

تبدأ الدراسة بالقاء الضوء على موقف المرأة الاوروبية من الدعاية الصليبية والحماس الديني الذي اشتعل في اوروبا في اواخر القرن الحادي عشر . ثم تحاول الكشف عن مشاركتها في الحملات الاولى والمتاعب التي واجهتها الى ان بلغت الديار المقدسة . وتسعى بعد ذلك الى استجلاء حالة المرأة الفرنجية التي استقرت في الشرق والمحن التي عاشتها او فرضت عليها في سبيل " الصالح العام " .

تشير الحوليات الصليبية المبكرة الى مشاركة المرأة بصورة او بأخرى في هذه الحركة ، ويبدو ذلك جليا من خلال الحماس الذي ابداه كلا الجنسين للمشاركة في حملة العامة . فقد سعى الراهب بطرس الناسك جاهدا في سبيل تجنيد عدد من النساء في هذه الحملة ، وعمل على اصلاح بنات الهوى بتزويجهن ودفع مهورهن من الاموال التي تجمعت لديه كحصيلة للضريبة التي فرضها باسم ضريبة درهم الفقير (Poor Penny Tax) ^(١) . ونتيجة لذلك ، فقد التحق به عدد كبير من النساء . ويبدو ان ضخامة العدد الذي تجمع للاشتراك في حملة العامة حدا بالبابا اربان الثاني (Urban II) الى اشتراط مغادرة النساء مع الحملة

بوجود ازواجهن او اخوانهن او اية حماة شرعين لهن فيها لاعتقاده ان وجود النساء مع الحملة سيكون عبئا عليها ، وسيجلب لها ضررا اكثر من النفع المرجو (٢).

وعندما اخذت الحملة الاولى تنهياً للانطلاق اقامت قريبات الجنود المشاركين فيها احتفالا غاية في الاثارة من اجل وداعهم . وقد ترك فولشر الشارترى (Fulcher of Chartres) ووليم الصوري (William of Tyre) وصفا بليغا لذلك المشهد المشبوب بالاسى . يقول فولشر الشارترى : " ٠٠٠ أي حزن وأي حسرة ، أي عويل وأي نواح ارتفع بين الاصدقاء عندما غادر الزوج زوجته الغالية على قلبه ٠٠٠ ؟ ويخبر الزوج زوجته عن موعد عودته المرتقبة ، مؤكدا لها انه اذا ما نجا بفضل الله فسيعود اليها . لقد استودعها الله وقبلها ببطة ، مهديدا اذا ما بكت بأنه لن يذهب . اما هي ، ومخافة ان لا تراه ثانية فانها لم تقو على الوقوف اذ اغمي عليها وخرت ارضا باكية على حبيبها الذي افتقدت كأنه ميت للتو ٠٠٠ " (٣).

اما وليم الصوري الذي يعتمد على فولشر الشارترى في وصفه لذلك المشهد فيقول : " بالدموع والعيول ، اصطحبت الامهات الابناء المغادرين ، والبنات الابهاء ، والاخوات الاخوان ، في حين حملت الزوجات الاطفال الرضع وشهدن ازواجهن " (٤).

اما النساء اللواتي خرجن في تلك الحملة فقد واجهن جملة من المصاعب منذ انطلاقها وحتى بلوغها السواحل الشمالية لبلاد الشام . ولعل اقصى تلك المصاعب واشدها ايلاها هي ان النساء كن هدفا للسبي من قبل اعداء الفرنجة . فقد سقط عدد منهن ضحايا وسبايا بيد البلغار نتيجة للنزاع الذي نشب بينهم وبين حملة بطرس الناسك اثناء اجتيازها بلغاريا سنة ١٠٩٦ (٥). كما ان النساء اللواتي رافقن حملة وليم كونت بواتيه (William of Poitou) وستيفن كونت بلوا (Stephen of Blois) سنة ١١٠١ ، واجهن مصيرا مشابها . فعندما سحقت هذه الحملة على يد سلاجقة الروم والدانشمانديين ، قتل عدد من النساء على يد الاتراك ، وسبي عدد اخر (٦).

وفيما يتعلق بالنساء اللواتي نجون من القتل والاسر في الطريق ووصلن مع الحملات الاولى الى الشرق فقد جابهن محنا جديدة ، ولكن على يد الفرنجة انفسهم . فبينما كان الفرنجة يحاصرون انطاكية سنة ١٠٩٧ واجهوا مجاعة كبرى فقد خلالها الخبز من المعسكر . واصيب الجميع بسببها بالوهن والاحباط مما دفع العديد منهم الى محاولة

الانسحاب سرا من الحصار للهرب بعد ذلك . وبعد مشاورات عقدها قادة الفرنجة حول هذا الامر ، قرروا ابعاد جميع النساء المرافقات للحملة ، المتزوجات وغير المتزوجات على حد سواء ، من اجل توفير القوات للمحاربين ، لذلك اخذت النساء المطرودات يبحثن عن مأوى في المدن المجاورة (٧).

اضافة الى ذلك ، فان الافكار التي كانت سائدة في اوربوا في العصور الوسطى عن المرأة والتي جعلت منها تجسيدا لللاثم والشهوة والفجور (٨) ، قد رافقت الفرنجة الى الشرق ، فعندما كانت تحل بهم مصيبة او تنزل بهم نازلة يسارعون الى ردها الى اثم النساء وابتذالهن . فحينما شن الاتراك هجوما مدمرا على معسكر الفرنجة في دورليوم (Doryleum) (٩) ، في صيف سنة ١٠٩٧ ، كان بينهم من نسب هذه المصيبة الى فجور النساء في معسكرهم مثل فولشرالتشارتري الذي يقول في ذلك الهجوم المحنة : " لقد كان واضحا لنا ان ما حصل كان بسبب اثامنا لان الترف دنس بعضنا ، كما ان الجشع ورذائل اخرى دنست اخرين " (١٠).

ويعزو فولشرالتشارتري نفسه سوء طالع الفرنجة واخفاقهم في الاستيلاء على انطاكية في وقت قصير الى الاثم والشروع التي سرت بينهم . ولهذا فقد تم طرد النساء من الجيش ليس فقط بسبب الجوع بل لكونهن آثمات مذنبات . يؤكد ذلك بقوله : " لقد طردن خوفا من قذارة العيش الخليع الذي يغضب الله " (١١).

وعلى الرغم من هذا الغلو تجاه المرأة ، الا انها كانت كما يبدو ترغب في المشاركة في الاعمال العسكرية ، وكانت تقدم خدمات لا يمكن اغفال اهميتها كتوفير الماء للمحاربين على الاقل (١٢). لكن مع ذلك ظل بعض قادة الفرنجة يقاومون مرافقة النساء لحملاتهم وينظرون الى وجودهن مع الجيش على انه عائق له وعيب عليه . فعندما قاد امير انطاكية بوهمند الثاني (Bohemond II) حملته الثانية ضد الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثاني (Alwxius II) سنة ١١٠٧ ، لم يسمح لاية امرأة ان ترافقه في تلك الحملة (١٣).

أقام الفرنجة أربع دول في المناطق التي سيطروا عليها في بلاد الشام هي : امارة الرها ، وامارة انطاكية ، ومملكة بيت المقدس ، وامارة طرابلس . وقد جلبوا معهم الافكار والمؤسسات الاقطاعية الاوروبية وطبقوها في البلاد التي خضعت لهم. لكن ، وعلى الرغم من الاختلافات ما بين امارة فرنجية واخرى ، فان نظام الاقطاع الفرنجي بشكل عام تميز عن

نظام الاقطاع الاوروبي بخصائص نجمت عن الظروف التي تطور فيها . فقد كان المستوطنون الفرنجة اقلية بالنسبة لسكان البلاد التي سيطروا عليها، واقام السادة الاقطاعيون في مدن وليس بين فلاحهم في الاراضي التي اقطعت لهم ، لذلك لم يكن هناك اي رباط بين السيد وفلاحيه مثلما كان في اوروبا . ومن هنا كان الاقطاع الفرنسي شبيها في كثير من وجوهه بنظام الاقطاع الاسلامي الذي كان سائدا في بلاد الشام (١٤).

ولم يكن للفرنجة في الشام دستور ثابت ، وانما كانت لهم عادات تتطور وتتغير حسب الظروف . وبينما اتبع امراء انطاكية وطرابلس مبدأ الوراثة في الحكم كانت ملكية بيت المقدس انتخابية رغم اتباع مبدأ الوراثة فيما بعد (١٥) . ونتيجة لذلك تمكنت نساء الاسرة المالكة والطبقة النبيلة من ممارسة حقوقهن الوراثة في الحكم والوصاية على العرش وارتداء التاج والتمتع بالاقطاعات ، الا انه لم يكن بمقدور أي منهن ان تحكم منفردة ، بسبب الظروف الخاصة بالمجتمع الفرنسي التي تؤكد على وجود وصي ذكر عليها ، فمجتمع كهذا بحاجة الى حاكم محارب قبل أي شيء آخر .

فعندما توفي الملك بلدوين الثاني (Baldwin II) سنة ١١٣١ ، دون وريث ذكر ، انتقل التاج الى ابنته الكبرى الاميرة ميلزاند (Melisende) وزوجها فولك الانجوي (Fulk of Anjou) الذي اصبح ثالث ملوك مملكة بيت المقدس . وبعد وفاة الملك فولك ١١٤٣ ، عادت اليها جميع حقوقها كوريثة للعرش . غير ان فكرة وجود ملكة كوصية منفردة على العرش كانت مرفوضة من قبل البارونات . ولهذا عينت الملكة ابنها الامير بلدوين (Baldwin) ، الملك بلدوين الثالث فيما بعد ، شريكا لها في الحكم ، وعينت قريبها مانسيس (Mansses) مستشارا لها (١٦) .

كان مستشار الملكة المذكور قاسيا على البارونات متعجرفا في تعامله معهم ، وكان الملك بلدوين الثالث من بين اولئك الذين اجمعوا على كراهيته . فالتف البارونات الغاضبون حول الملك واصرروا على خلع امه من الحكم . ولما بلغ الملك سن الرشد اقنعوه بانهم من الحيف عليه ان يكون محكوما من قبل امرأة . ومن هنا اخذت الفجوة تتسع ما بين الملكة وابنها ، الى ان اتفقا اخيرا على تقسيم المملكة بينهما . وقد أعطى الملك الخيار ، فاختار لنفسه صور وعكا وتوابعهما ، فبقى للملكة بيت المقدس ونابلس وتوابعهما . ولكن يبدو ان الملك بلدوين الثالث وبايحاء من مستشاريه لم يكن راضيا عن تلك الاتفاقية مع أمه ، فحاول الاستيلاء

على ممتلكاتها بالقوة ، فحدث الصدام بين الملك وامه . وبعد بضعة اشتباكات بين الطرفين سلمت الملكة لابنها وتخلت له عن بيت المقدس واحتفظت هي بنابلس (١٧).

بعد ذلك اختفت الملكة ميلزاند من الحياة السياسية للمملكة اللاتينية الى ان فارقت الحياة سنة ١١٦١ . وقد وصفت بانها امرأة مقتدرة تستطيع في وقت السلم ان تحكم بكفاءة ونجاح . ويقول وليم الصوري بشأنها : « لقد حكمت المملكة بعزيمة تفوق قدرة معظم النساء ، وكان حكمها عادلا وحكيما » (١٨).

لم يكن الصراع على السلطة بين الملكة ميلزاند وابنها جديدا في هذه العائلة . واذا كان هذا الخلاف يمثل نزاع الابن مع امه فهناك سابقة تمثل نزاع البنت مع أبيها وفي العائلة نفسها . ذلك ان الاميرة أليس (Alice) الابنة الثانية للملك بلدوين الثاني شقيقة ميلزاند وخالة بلدوين الثالث ، كانت مثالا متميزا للمرأة ذات الطموح الكبير المتطلعة نحو تحقيق كل ما تستطيع من مكاسب سياسية . فقد كانت هذه الأميرة زوجة لأمير انطاكية بوهمند الثاني (Bohmond II). ولما قتل سنة ١١٣٠ على يد المسلمين ، انتقلت امارته الى ابنته الطفلة كونستانس (Constance) التي كانت اذ ذاك في الثانية من العمر ، فتولت امها الاميرة أليس الوصاية عليها من تلقاء نفسها ومن دون ان تنتظر حتى موافقة والدها الملك بلدوين الثاني على تعيين وصي على عرش حفيدته بصفته كبير حكام الفرنج في المنطقة (١٩).

ولما كانت الاميرة أليس تصبو الى بلوغ السلطة كحاكم ذي سلطات كاملة وليس كوصي فقط ، فانها لم تعدم الوسيلة للخلاص من طفلتها ، صاحبة الحق الشرعي في العرش . وكان الحل ، اما في ادخال ابنتها الى أحد الأديرة ، او بتزويجها من شخص لا أهمية له . ثم زادت الأمر تعقيدا عندما أرسلت الى الأتابك عماد الدين زنكي في حلب تعرض عليه خضوعها له مقابل ضمانه ملكيتها لانطاكية ، وذلك بعد ان بلغها خبر خروج أبيها من بيت المقدس باتجاهها (٢٠).

في هذه الاثناء كان الملك بلدوين قد توجه الى انطاكية لترتيب شؤونها ولحفظ حق حفيدته وريثة عرش الامارة وتعيين وصي عليها . وما ان اقترب جنوده من المدينة حتى القوا القبض على مبعوث ابنته ، الأميرة أليس ، الى الأتابك زنكي ، فأمر الملك بشنق ذلك المبعوث على الفور . اما أليس فقد منعت أباهما من دخول المدينة وأوصدت ابوابها في وجهه ، فحاصر الملك بلدوين الثاني ابنته في انطاكية حتى استسلمت وخُلع من الوصاية ، وأعطيت

جبلّة واللاذقية على الساحل الشامي اللتان كانتا مهرها من يوهمند الثاني (٢١).

وبعد وفاة الملك بلدوين الثاني سنة ١١٣١، ظنت أليس أن الوقت قد حان لتحقيق مطامحها. ولهذا فقد تزعمت المعارضة ضد زوج اختها، الملك فولك الانجوي وذلك باصرارها على أن تكون هي الوصية على عرش ابنتها. واستطاعت عن طريق تقديم الهدايا وبذل الوعود لعدد من البارونات المتنفذين مثل: وليم صاحب قلعة صهيون (William of Sahyun)، وبونس امير طرابلس (Pons of Tripoli)، وجوسلين الاصغر (Jocelin the Younger) اميرالرها، استطاعت أن تؤمن وقوفهم الى جانبها. غير أن رفض أكثر البارونات الانطاكيين لفكرة "حكم امرأة"، دفعهم الى استدعاء الملك فولك الانجوي من بيت المقدس الى انطاكية. وقد لبى الملك طلبهم وحضر وخلع اليس من الوصاية، واعيدت الى ممتلكاتها (٢٢).

استنجدت الاميرة أليس باختها الملكة ميلزاند، زوجة الملك فولك، التي اسفرت وساطتها عن السماح لأليس بالعودة الى انطاكية على أن تبقى الوصاية على العرش بيد الملك، وأن تشترك أليس والبطيريك رادولف (Radulph)، بطيريك انطاكية، بتسيير شؤون الحكم. وفي نهاية سنة ١١٣٥ أرسلت اليس الى القسطنطينية لتعرض زواج ابنتها كونستانس من الامير مانويل (Manuel) الابن الأصغر للامبراطور البيزنطي ميخائيل الرابع. ومن جهة أخرى، قرر الملك فولك وبارونات انطاكية تزويج الاميرة كونستانس من الامير رايmond أمير بواتيه (Raymond of Poitiers) الابن الأصغر لوليم التاسع (William IX) دوق اكتانيا (Aquitaine). وما أن وصل ريموند الى انطاكية حتى ذهب للقاء البطيريك رادولف الذي وعده بالمساعدة على أن يقدم له هذا الامير الولاء (homage)، وأن يخضع له في كل الامور (٢٣).

ولما وافق الامير على شرط البطيريك، طلب الاخير الأميرة أليس الى مجلسه ليبلغها أن الأمير ريموند جاء طالبا يدها. ولم يكن فعل البطيريك ذاك الا خديعة انطلت بسهولة على أليس، لأن ما ابلغها اياه كان امرا مقنعا ومنطقيا فقد كان ريموند في السابعة والثلاثين، وكانت هي دون الثلاثين، ام ابنتها فكانت لا تزال طفلة في التاسعة. وبينما كانت أليس تنتظر زوجها المرتقب أختطف كونستانس الى الكندرائية حيث زوجها البطيريك الى ريموند. وقد كانت تلك الخطوة هزيمة نكراء لحقت بالاميرة اليس ومشروعاتها، لأنه لم يكن

لديها اي سلاح تقاوم به زواجا شرعيا فعادت الى اللاذقية لتمضي بقية حياتها (٢٤).

يعتقد وليم الصوري ان الأميرة أليس كانت منقادة لروحها الشريرة لتنفيذ خطتها (٢٥). اما واقع الامر فان محاولة هذه الاميرة تمثل أول تحد تقوم به أميرة بعيدة الطموح ضد مبدأ الوراثة في الحكم . وبعيدا عن التكهّن في حقيقة هدفها هو الاستيلاء على السلطة وممارستها منفردة ام الحصول على زوج مناسب يليق بها وبمقامها؟ يبدو انها ادركت ما لم يدركه الرجال من قادة الفرنج ، الا وهو تنامي بل وتعظم القوة الاسلامية . لذلك فان اقتراحها تزويج ابنتها من ابن الامبراطور البيزنطي ، كان مشروعا للتحالف مع بيزنطة لانقاذ امارة انطاكية. فقد كانت بيزنطة في ذلك الوقت هي القوة الوحيدة التي يمكنها الوقوف في وجه المسلمين (٢٦).

اما الاميرة هودريانا (Hodriana)، الابنة الثالثة للملك بلدوين الثاني ، فلم تكن بعيدة عن المسرح السياسي رغم انها كانت اقل نشاطا وفاعلية من اختها ، الملكة ميلزاند والاميرة أليس. لقد كانت متزوجة من كونت طرابلس ريموند الثاني (Rymond II) ، لكنهما عاشا حياة زوجية قلقة بسبب عنادهما واستهتارهما ، كما دارت الشكوك حول شرعية ابنتها ميلزاند فتفاقم الخلاف بينها وبين زوجها سنة ١١٥٠ ، مما استدعى حضور اختها الملكة ميلزاند الى طرابلس لتسوية النزاع بينهما. ولما اخفق مسعى الملكة ، اضطحبت اختها وغادرتا طرابلس . ولم يمض طويل وقت على ذلك حتى اغتيل الكونت ريموند الثاني على يد الحشاشين ، وعلى اثر مصرع الكونت حلف النبلاء في طرابلس يمين الولاء للأميرة هودريانا وطفليها ريموند وميلزاند ، وذلك بناء على امر ابن اختها الملك بلدوين الثالث (٢٧).

وبالاضافة الى بنات الملك بلدوين الثاني اللواتي سيطرن على مجريات الحوادث في ايام الجيل الفرنجي الثاني ، تركت الاميرة أجني (Agnes) ، زوجة الملك عموري الاول (Amury I or Amarlic I) اثرها الواضح على تاريخ مملكة بيت المقدس الفرنجية. فعندما انتقل تاج المملكة الى عموري الأول اثر وفاة أخيه بلدوين الثالث سنة ١١٦٢ ، طُلب إليه ان يطلق زوجته الاميرة أجني ابنة جوسلين الاصغر ، كونت الرها ، لانهما كانا ابناء عمومة من الدرجة الرابعة . فطلق عموري زوجته ، على ان يتم الاعتراف بشرعية اطفالهما وحقهم في وراثة أبيهم (٢٨).

ولما توفي الملك عموري الاول سنة ١١٧٤ وخلفه ابنه بلدوين الرابع (المجذوم) ، عادت

أجني الى البلاط ساخطة مشحونة بالحدق ، واخذت تمارس السلطة نيابة عن ولدها . فقد أرغمته على تزويج اخته سبيللا (Sibylla) من جاي لوزنيان (Guy of Losignan) بدلا من عشيقها بلدوين صاحب بينى (Baldwin of Ibelin)، لان بلدوين كان من اقارب زوج أجني الثاني ، وهي التي عُرف عنها كراهيته لأقارب أزواجها المختلفين. فقد تزوجت مرتين او ثلاث مرات بعد طلاقها من عموري . ووصفها وليم الصوري بانها : " فاسدة الخلق ، جشعة ، لا تشبع لا من الرجال ولا من المال " (٢٩).

وقد امتد نفوذ أجني في مملكة بيت المقدس ليشمل التدخل في مسائل على قدر كبير من الاهمية . فبعد وفاة البطريك امالك (عموري) نيزل (Amalric of Nesel) سنة ١١٨٢ ، فرضت أجني مرشحها هيراكليوس (Heraclius) أسقف قيسارية لتولي بطريركية بيت المقدس وقد وصف هيراكليوس بأنه كان شبه أمي ، الا أن وسامته جعلته محل اهتمام أجني بحيث قدمته على منافسه وليم الصوري (٣٠) اضافة الى ذلك ، فرضت أجني ارادتها على ابنها بشأن منع ريموند كونت طرابلس ، من دخول المملكة بحجة انه يدبر مؤامرة للاستيلاء على عرش المملكة. والواقع ان ريموند هذا هو ابن خالة زوجها الثاني الملك عموري الأول ، وكان رجلا قديرا حاول ان يحد من نفوذه في البلاط (٣١).

وهكذا فقد سيطرت أجني وأخوها جوسلين وابنتها سبيللا والبطريك هيراكليوس على شؤون المملكة اثناء مرض الملك ، ثم اقنعوه بضرورة تولية زوج سبيللا ، جاي لوزنيان ، الوصاية على المملكة ، لأن التاج سيؤول الى سبيللا بموجب قانون الوراثة . وقد وافق الملك ، وعين جاي لوزنيان ، وصياً على كافة انحاء المملكة باستثناء مدينة القدس التي احتفظ بها الملك لنفسه . لكن عندما أدرك الملك العليل مخاطر نفوذ والدته وحاشيتها ، ولأنه لم يكن بمقدوره التصدي للمؤامرة التي كانت تحاك ضده من قبل أمه " الشريرة " وأخته " الساذجة " ، استدعى ريموند من طرابلس ليتولى تسيير شؤون المملكة (٣٢).

واذا كانت نساء الاسرة المالكة ينزعن الى تولي السلطة ويتورطن في الحيل والمكائد وفي منازعات الكتل المتنفة في المملكة ، فهناك عدد من نساء النبلاء اللواتي عهد اليهن بمهمة الوصاية ، فظهرن قدراتهن في اوقات حرجة . فعندما أسر المسلمون كونت الرها ، جوسلين الاصغر ، سنة ١١٥٠ ، حاولت زوجته بياترس (Beatrice) تصريف شؤون

ما تبقى من الامارة والمحافظة عليها قدر استطاعتها . يقول وليم الصوري بحقها : " لقد شغلت نفسها بتحسين قلاع البلاد الى حد يتجاوز قدرات امرأة ، وزودتها بالأسلحة والرجال والغذاء " (٣٣) . ولما اخفقت محاولات بياترس في انقاذ الامارة من السقوط بيد المسلمين بقيادة نور الدين محمود ، ارتحلت مع طفليها : جوسلين وأجني السالفة الذكر الى مدينة القدس (٣٤) .

ومن النساء اللواتي عُهد اليهن بمهام جسيمة في ظروف عصبية ، اسكيفا بوريه (Eschiva of Bures) ، أميرة الجليل وزوجة ريموند الثالث كونت طرابلس التي أوكل اليها أمر الدفاع عن مدينة طبرية ضد المسلمين بقيادة صلاح الدين ، وذلك قبيل موقعة حطين سنة ١١٨٧ . وقد كانت اسكيفا في هذه الفترة توافي الفرنجة برسائل حول تحركات المسلمين في المنطقة . كما تمكنت من الدفاع عن طبرية فترة من الوقت ، الى ان أدركت انه لا امل بنجدة تأتيها من قومها ، فسلمت المدينة الى صلاح الدين في الخامس من تموز سنة ١١٨٧ . وقد عاملها السلطان بلطف واحترام ، وسمح لها ولاهل بيتها باللحاق بطرابلس (٣٥) .

وظل للمرأة الفرنجية دور سياسي بعد معركة حطين ، اذ نجد في اواخر عهد الوجود الفرنجي في المنطقة معلومات عن سيدتين ارملتين كانتا تحكمان مدينتي بيروت وصور هما: اسكيفا (Eschiva) صاحبة بيروت ، ومارغريت (Margaret) صاحبة صور . وقد سارتا على خطى زعماء الفرنجة الآخرين الذين وقعوا اتفاقيات هدنة مع السلطان المملوكي قلاوون للحفاظ على ممتلكاتهم ، حيث أسرعتا الى تجديد اتفاقيتي مدينتيهما مع السلطان سنة ١٢٨٥ . وقبل سقوط عكا بيد المسلمين سنة ١٢٩١ ، حاولت مارغريت شتى السبل للاحتفاظ بالمدينة لذلك سلمتها الى ابن اخيها عموري وذلك قبيل سقوطها بيد المسلمين ببضعة أشهر (٣٦) .

يبدو مما تقدم ان نساء الاسرة المالكة والطبقة النبيلة مارسن حقوقهن الوراثية في الحكم والوصاية مع كل ما احاط ذلك من تحديات . لكن المرأة الفرنجية في الشرق واجهت جملة من المشاكل والصعاب التي كانت تتفاوت حسب الازواضع الاجتماعية والاقتصادية لفئات المجتمع الفرنجي . ولعل المتاعب الاقتصادية والضرورات العسكرية كان لها الدور الاكبر في جلب تلك المحن للنساء الفرنجيات .

ففيما يتعلق بالأسرة الملكية طرد الملك بلدوين الاول زوجته الأرمنية اردا

(Arda) متهمها اياها بسوء سمعتها ، وفساد اخلاقها ، وباقترافها الزنا ، وقد أكرهت بعد طلاقها على دخول دير القديسة حنه (Anne) في بيت المقدس دونما ادنى رغبة لها في الحياة الديرية . أما الملك فقد تزوج من ادلياد سالونا (Adelaide of Salona) كونتة صقلية الأرملة . ويبدو واضحا ان بلدوين الاول رغب في الزواج من ادلياد ليس فقط من أجل ثروتها وتعزيز وضعه المالي عن طريق الحصول على مبلغ من المال تقدمه اليه تحت اسم مهر ، بل ومن أجل جاهها ونفوذها لدى النورمان في صقلية . ويدل على ذلك انه عندما كان على فراش الموت طردها واستدعى الملكة السابقة أردا (٣٧) .

تمكنت أردا عن طريق اختلاق بعض الأعذار من الحصول على اذن لزيارة اقاربها في القسطنطينية زاعمة انها ترغب في تحصيل بعض المساعدات المادية لتخفيف شيء من الفاقة التي كانت تعاني منها نزليات الدير . فغادرت الى بيزنطة تحت غطاء هذه الذريعة . غير انها ما لبثت ان نبذت حياة الدير واستسلمت الى نمط اخر من حياة التهلكة والفحش . ويقول وليم الصوري بشأن حياتها تلك : " لقد مارسست البغاء مع كل من جاءها دونما اعتبار الى سمعتها ورفعة مقامها الملكي السابق " (٣٨) .

اما أدلياد فقد كان طلاقها اهانة لم يغفرها البلاط الصقلي لملكة بيت المقدس الفرنجية . وقد مضى زمن طويل دون ان تتلقى ملكة بيت المقدس خلالها اية مساعدات او حتى تعاطف من صقلية . وقد وصف وليم الصوري وضع أدلياد قائلاً : « لقد كانت حزينة مبتئسة جراء الاهانة التي واجهت وجراء هدر ثروتها . وقد جهزت نفسها للعودة الى بلادها بعد ثلاث سنين على وصولها الى سوريا . اما ابنها فغضب غضبا تجاوز الحد ٠٠٠ وقد امتلأ حقدا على الملكة واهلها . لقد قام امراء نصارى من مختلف انحاء العالم بتعظيم شأن مملكتنا الفتية ، اما هو وورثته فلا يزالون حتى الوقت الحاضر عازفين عن مصالحتنا ولو بكلمة ودية واحدة » (٣٩) .

ومن المصاعب التي واجهتها نساء الأسرة المالكة انه كان عليهن ان يتزوجن دون رغبتهن ما دام الزواج في مصلحة الملكة . فعلى سبيل المثال زوجت ميلزاند الى فولك الانجوي وهو في سن الكهولة لتأمين وجود حام للمملكة (٤٠) . كما زوجت فيما بعد كونستانس الى ريموند أمير بواتيه لحماية عرش انطاكية .

والى جانب الزواج القسري ، عانت بعضهن طلاقا قسرياً . فقد أجبر عموري الاول على

طلاق أجنبي عندما طالب بعرش مملكة بيت المقدس . وعندما آل العرش الى الأميرة سبيللا ابنة عموري الأول اثر وفاة أخيها بلدوين الرابع سنة ١١٨٥ ، أكرهت على الانفصال عن زوجها جاي لوزنيان لان قادة الفرنجة رأوا فيه شخصا غير أهل للعرش . لكن عندما اختلفوا على زوج مناسب لها حسمت هي الخلاف ووضعت التاج على رأس جاي (٤١).

وتشكل الاميرة ايزابيلا (Isabella)، ابنة عموري الأول من زوجته البيزنطية ماري كومنينيا (Maria Comnena) نموذجا للمرأة الضعيفة ، عديمة الحيلة ، مسلوبة الارادة . لم يكن لهذه الاميرة اي طموح سياسي ، بل على العكس تركت نفسها تنتقل من زوج الى آخر دونما اي اعتبار لرغباتها الشخصية . ونتيجة لكونها الوريثة الشرعية لتاج المملكة فقد اصبحت جزءا مكملا لوجود التاج على رأس الرجل الذي يراه القاده أهلالحملة . فبعد أسر الملك جاي في حطين ، آل العرش الى ايزابيلا التي كانت متزوجة من همفري صاحب تورون (تبنين) (Humphrey Of Thoron) ، فانتزعت من زوجها وزوجت الى صاحب صور الماركيز كونراد أمير مونفerrat (Conrad Of Montferrat) ، فاصبح ملكا . وعندما اغتيل على يد الحشاشين سنة ١١٩٢ ، زوجت ايزابيلا الى الكونت هنري الشامبيني (Henry Of Cham-pagne) وعندما توفي هنري سنة ١١٩٨ ، زوجت ايزابيلا لعموري الثاني ملك قبرص (٤٢).

ومما يجدر ذكره أن الماركيز كونراد استمال الناس الى جانبه بالهدايا والوعود من أجل أن يتزوج ايزابيلا . ومع أن الكنيسة كانت تحرم فصم عرى زوجية قائمة ، الا أن كونراد لم يعدم الوسيلة لخلق ذريعة تمكنه من انتزاع ايزابيلا من زوجها . ذلك أن مؤيديه من زعماء الفرنجة اقنعوه بإمكانية فصل ايزابيلا عن همفري دون اختراق القانون بحجة انها زوجت اليه وهي ما تزال طفلة . وقد أفهمت الأميرة ان تقول بانها لم تُختطف ، وانما اتبعت الماركيز برغبتها (٤٣) . وبزواج كونراد من ايزابيلا صار لديه ثلاث زوجات . واحدة في بلاده والثانية في القسطنطينية وايزابيلا . ولهذا وجهت اليه تهمة اقرار الزنا ، وصدر قرار كنسي بحرمانه (٤٤).

بالاضافة الى ما تقدم ذكره من مصاعب ومحن واجهتها نساء الأسرة المالكة ، فرضت عليهن الضرورات العسكرية في مجتمعهن مشكلة اخرى ؛ وهي تقديمهن رهائن لاعداء الصليبيين . فعندما وافق المسلمون على تسليم صور الى الفرنجة في حزيران ١١٤٢ كان على الملك بلدوين الثاني ان يدفع ثمانين ألف دينار ويتخلّى عن بعض المدن . وكان عليه ان

يدفع عشرين الف دينار مقدما إضافة الى تقديم بعض الرهائن . وقد اشترط طغتكين ، صاحب دمشق ، ان تكون الاميرة جوفيتا (Joveta) ، الابنة الصغرى للملك بلدوين الثاني ، ذات الاربع سنين واحد عشر طفلا من ابناء النبلاء من بين الرهائن . وقد مكثت جوفيتا ورفاقها عند المسلمين حتى أذار ١١٢٥ حيث أطلق سراحهم (٤٥).

ولما جاء الامبراطور البيزنطي حنا (John) سنة ١١٤٢ للوقوف الى جانب الفرنجة في انطاكية ، طالبهم برهائن فور وصوله . وكان على الكونت جوسلين الاصغر ، امير الرها ، ان يلبي طلب الامبراطور ، فارسل اليه احدى بناته وتدعى ايزابيلا كرهينة . واستطاع الامبراطور بواسطة رهينته تلك ان يربط الكونت به رباطا وثيقا ، وان يحمله على تنفيذ كافة أوامره (٤٦).

واذا ما تركنا نساء الاسرة المالكة والعائلات النبيلة والتفتنا الى وضع نساء عامة الفرنجة فلدينا بعض الاشارات العابرة التي توحى بمشاركتهن في اعمال التحصينات ، وتدل على ظهورهن في ساحات القتال . منها على سبيل المثال ما يرويه العماد الاصفهاني في ذكره الوقعة العادلية سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م عندما هاجم الفرنجة معسكر العادل بالقرب من عكا فدخلوه بعد اخلائه ، فهاجمهم العادل وكسرهم ، ويقول العماد : " وركبت أنا والقاضي بهاء الدين بن شداد لمشاهدة ما هناك من اشلاء صرعى واجساد ٠٠٠ ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة " (٤٧).

وفي الوقت ذاته ، وبينما كان الفرنجة يعملون على تحصين مدينة صور سنة ١١٩٠ كان هناك جمع من الناس من كلا الجنسين ومن جميع الاعمار يعملون جاهدين في حفر خندق حول المدينة . وكان بينهم امرأة تعمل بجهد وحماس وتشجع الآخرين دون كلل ، لكن أحد المسلمين كان مختبئا ينظرها ففاجأها بضربة قاتلة . وعندما سقطت أرضا طلبت الى زوجها وأولئك الذين اسرعوا لمساعدتها ان يواروا جسدتها الخندق الذي كانت تعمل في شقه (٤٨).

اما عن ظهور النساء في ساحات المعارك ، فيذكر انه بعد استيلاء الفرنجة على دمياط سنة ١٢١٧ ، وضعوا أيديهم على كثير من الذهب والفضة والمجوهرات التي قسموها ليس فقط على رجال الدين والفرسان بل ايضا على الحضور من نساء واطفال (٤٩).

واذا كانت الاشارات الثلاث السالفة الذكر تدل على اشتراك المرأة في اعمال التحصينات والدفاع ، وعلى مرافقتها للحملات العسكرية ، فان الموقف المتطرف تجاهها لم يتغير بعد مرور قرن على استيطان الفرنجة في بلاد الشام . فتهم كالفساد والابتذال وسوء الاخلاق واشاعة الفاحشة والرذيلة ، نُسبت الى المرأة ، واعتُبرت سبب ما أصاب الصليبيين اثناء حملة الملوك . ويمكن ملاحظة ذلك من الرسالة التي بعثها البطريرك بلدوين شابلين (Baldwin Chaplain) ، بطريرك كانتربري (Canterbury) في إنجلترا ، الى كنيسته والمؤرخة في يوم الاحد ، الحادي والعشرين من تشرين الاول ١١٩١ ، حيث يقول : " ٠٠٠ ولما تمهلنا بعض الوقت في انتظار الملك ريتشارد وصحبه ، ولم يأتوا ، سرنا نحو جيشنا في عكا . فوجدنا جنودنا هناك ، واقولها بكل الم وحزن ، قد اسلموا انفسهم لافعال مخزية ، واستسلموا للراحة والشهوة بدلا من الفضائل المشجعة ٠٠ وكان المخيم خلوا من العفة والاتزان والايمان والاحسان ٠٠٠ " (٥٠).

ولعل في ما ذكره العماد الاصفهاني ما يؤيد مضمون رسالة البطريرك المشار اليها وذلك في ذكره خبر هجوم قام به المسلمون على سوق العواهر في عكا سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، حيث يقول في معرض حديثه عن قيام صلاح الدين بتعزيز قوة عكا : " ٠٠٠ ونقل اليها الرجال والذخائر والعدد ، فنقل اليها في المراكب جماعة من الامراء . واخذوا يطرقون الفرنج على سبيل التلصص والتصيد والتقنص ٠٠٠ وكبسوا ليلة سوق الخمارات والعواهر ، وسبوا عدة من المستحسنتات الفواجر ، واستنصروا بذلك واستبشروا واجترأوا منه على ما اجروا " (٥١).

وزيادة على ذلك يفرد العماد الاصفهاني فصلا لذكر حال نساء الفرنج خصصه للحديث عن ثلاثمائة من بنات الهوى وصلن في مركب للتسلية عن المحاربين حيث يقول : " وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة افرنجية مستحسنة ، متحلية بشبابها وحسنها متزينة . وقد اجتمعن من الجزائري ، وانتدبن للجرائر ، واغتربن لاسعاف الغرباء ، وتأهبن لاسعاد الاشقياء ، وترافدن على الارفاق والارفاد ، وتلهبن على السفاح والسفاد ٠٠٠ وزعن ان هذه قربة ما فوقها قربة ، لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة ٠٠٠ " (٥٢).

وعندما استدعى الفرنسيون الى صور سنة ١١٩٢ فقد انغمسوا في الملذات وغرقوا في الحانات وبيوت الدعارة ، واستسلموا للشهوة ومسامرة الراقصات واقامة الولائم مع بائعات الهوى (٥٣).

ولان مسألة عفة الجيش كانت مسألة ملحة على قادة الفرنجة ، أمر الملك ريتشارد قلب الاسد (Richard Cour de Lion) اثناء توجهه الى قيسارية في جنوبي فلسطين سنة ١١٩١ الا يرافق الجيش أية امرأة ، ما عدا غاسلات الملابس اللواتي عليهن مرافقة الجيش سيرا على الاقدام ، شريطة ألا يشكلن عبئا عليه او يتحن مجالا للرديلة ^(٥٤). ولكن بالرغم من اوامر الملك فان الفاحشة زحفت على الجيش يوما بعد يوم ، لأن بائعات الهوى عدن متخفيات الى المعسكر ^(٥٥). وتجدر الاشارة الى ان الفرنجة كانوا يمرون بظروف اقتصادية صعبة في هذه الاثناء واجتاحتهم المجاعة من جراء ذلك ^(٥٦). ولعل تلك الظروف كانت من الأسباب التي دفعت تلك النسوة الى ما قمن به من أفعال فاسدة .

ومن جملة المحن التي اصابت المرأة الفرنجية في الشرق ، محنة السبي . فعلى سبيل المثال وقع عدد من النساء الفرنجيات اسيرات في يد أمير دمشق تاج الملوك بوري سنة ١١٣٢ عندما استعاد بانياس ، وكانت زوجة رينيه بروس (Renier of Brus) ، صاحب بانياس ، من بين الأسيرات ، وقد امضين حوالي سنتين في الاسر الى ان تم الافراج عنهن اثر هدنة بين المسلمين والفرنجة ^(٥٧).

وقد اشتدت هذه المحنة عندما أخذ المسلمون بقيادة صلاح الدين ، يستعيدون البلاد الواقعة تحت سيطرة الفرنجة ، اذ نجم عن استعادة معظم الحصون والمدن وقوع اعداد من نساء الفرنجة في الاسر . وقد وقع العدد الاكبر من الاسيرات اثر استعادة بيت المقدس سنة ١١٨٧. وتقرر ان تكون فدية الرجل عشرة دنانير وفدية المرأة خمسة دنانير ، وان يستعبد كل من لا يتمكن من افتداء نفسه . ولهذا فقد تم استعباد حوالي خمسة عشر الفا ، يفصلها العماد الاصفهاني قائلا : " فأما الرجال فكانوا في تقدير سبعة الاف ٠٠٠ فاقسمتهم أيدي السبي أيدي سبأ ٠٠٠ واحصيت النساء والصبيان ثمانية الاف نسمة ٠٠٠ فكم محجوبة هتكت ، ومالكة ملكت ، وعزباء نكحت ، وعزيزة منحت ٠٠٠ " ^(٥٨).

واذا كان مصير عدد كبير من نساء العامة الفرنجيات هو الاسر، ومصير الفقيرات منهن هو العبودية ، فان نساء الأسرة المالكة والبيوتات الحاكمة حظين بمعاملة كريمة من قبل السلطان صلاح الدين ، الذي منّ عليهن باطلاق سراحهن ولحقن بمدينة صور بأموالهن ومتاعهن وأتباعهن ^(٥٩).

وأخيرا عندما صُفّي الوجود الفرنجي في المنطقة باستعادة عكا للحظيرة الاسلامية سنة ١٢٩١ أسر المسلمون عددا من النساء الفرنجيات في ركن الداوية (فرسان المعبد) في هذه المدينة (٦٠).

اما فيما يتعلق بدور المرأة الفرنجية بالحياة الدينية في المملكة اللاتينية ، فقد كان هناك اديرة خاصة بالنساء كما هو الحال في اوروبا . وبناء على المعلومات المتاحة فان دوافع الالتحاق بالأديرة تختلف من امرأة لآخرى . فعندما اكرهت الملكة أردا ، زوجة الملك بلدوين الاول ، على دخول الدير كان في بيت المقدس دير يقطنه اربع نساء معوزات . ولما التحقت الملكة به ، وهبه الملك بعض المساعدة . وقد اتخذت أردا من فقر الدير ذريعة للذهاب الى القسطنطينية للحصول على بعض المساعدات لنزيلاته (٦١) .

واذا كنا لا نعلم السبب الذي ادخل نزيلات ذلك الدير البائسات اليه ، فان الملكة أردا أرغمت على دخوله لاتهامها باقتراف الزنا ، لذلك كان عليها ان تبحث عن المغفرة بدخوله . وقد تكرر مثل ذلك بشأن زوجة رنيه بروس صاحب بانياس التي وقعت في اسر المسلمين سنة ١١٣٢ ، فعندما أطلق سراحها بعد سنتين اتهمت بانتهاك حرمة زواجها باقتراف الفاحشة مع الاعداء . ولما لم تستطع انكار ذنبها دخلت الدير في القدس ، واقسمت أن تلتزم جانب العفة الى الأبد فترهبت (٦٢) .

والى جانب البحث عن المغفرة ، كان انعدام وجود زوج مناسب عاملا اخر من عوامل اللحاق بالحياة الديرية . وقد كان هذا السبب هو الذي أدى بالاميرة جوفيتا (Joveta) ، الابنة الصغرى للملك بلدوين الثاني ، الى اللحاق كراهية بدير القديسة حنه في بيت المقدس . وفي سنة ١١٤٣ استبدلت الملكة ميلزاند بيسان من حارس قبر السيد المسيح بضياع وممتلكات قرب الخليل ، وبنت هناك ديورا وقفت عليه اريحا والمناطق المجاورة لها ، وقد عينت راهبة عجوز رئيسة لهذا الدير ما لبثت ان فارقت الحياة بعد بضعة اشهر . ثم انتخب الدير جوفيتا ذات الاربع وعشرين سنة رئيسة له . وكأمية ورئيسة لاغنى دير في المنطقة احتلت جوفيتا مكانة متميزة طيلة حياتها (٦٣) .

ويبدو أن هذه الأميرة الراهبة كانت ذات نفوذ كبير في المؤسسة الدينية . فقد استطاعت

ان تفرض مرشحها لمنصب بطريرك القدس اثر شغوره بوفاة البطريرك فولشر (Fulcher) سنة ١١٥٧. ونتيجة لتدخل جوفيتا وسبيللا، الأخت غير الشقيقة للملك بلدوين الثالث، انتُخب اسقف كنيسة قبر السيد المسيح امرك (Amalrich) لذلك المنصب (٦٤).

اما ستيفانيا (Stephania) رئيسة دير السيدة مريم الذي كان يقع بمواجهة قبر السيد المسيح في القدس، فتشكل مثالا آخر لالتحاق أميرة بالحياة الديرية، فهي ابنة جوسلين الاكبر، كونت الرها، وقد التحقت بالدير لتعذر حصولها على زوج مناسب (٦٥).

وتجدر الاشارة الى انه كان من واجب النساء اللواتي انخرطن في المؤسسة الدينية في المجتمع الفرنجي القيام بتدريس التعاليم المسيحية لصغار المسلمين الذين يقعون في الاسر. فعلى سبيل المثال شن الفرنجة غارتين سنة ١٢١٧ على جبل الطور والناصرية واسروا عددا كبيرا من المسلمين، رجالا ونساء واطفالا. وقد قام بطريرك عكا جاك دي فرتي (Jacques de Virty) بتعميد الصغار وقسمهم بين الراهبات لتدريسهم التعاليم المسيحية (٦٦).

اما فيما يتعلق بموضوع الزواج والقواعد التي تحكمه، فقد اتبع المجتمع الفرنجي في بلاد الشام القوانين والأعراف المرعية في اوربا حينئذ، التي اعتبرت الزواج رباطا روحيا ومنحة آلهية. فحرمت فصم عرى هذا الرباط الا في حالة ارتكاب الزنا (٦٧). وقد كان كل من التكافؤ والموافقة مبدئين اساسيين في قانون الزواج عند الفرنج. كما قبلوا القاعدة القانونية الرومانية التي حددت سن الثانية عشرة كحد ادنى لزواج الفتاة وسن الثالثة عشرة كحد ادنى لزواج الفتى (٦٨).

غير ان القواعد والنظريات تنبئ فقط عما يدور في اذهان واضعيها من رغبات يتطلعون الى اتباعها في المجتمع الذي يظهرون فيه، ذلك لان هذه القواعد لم تراعى تماما في الممارسة العملية. ولعل في نماذج الزواج القسري والطلاق القسري التي أتينا على ذكرها، وزواج طفلة في الثانية من العمر مثل كونستانس من كهل في منتصف العمر تدل دلالة واضحة على ابتعاد الفرنج عن مراعاة قوانين الزواج المنصوص عليها. ويبدو ان الضرورات السياسية والعسكرية في ذلك المجتمع الذي يقوم اساسا على الحرب كانت من ابرز العوامل وراء ذلك. فعندما ينتقل التاج الى أنثى بموجب حق الوراثة فان المطلوب هو البحث عن محارب قدير لحمايته وذلك بالزواج منها.

ونتيجة للضرورات السابقة ايضا تبنى الصليبيون سياسة تزويج ارامل البارونات من فرسان مناسبين إما من المنطقة او من الغرب . وقد كان ملك بيت المقدس بصفته السيد الأعلى حق تزويج اولئك الارامل (٦٩). ويبدو أن اتباع هذه السياسة كان الطريقة المثلى في نظرهم للحفاظ على الكيان الفرنجي في المنطقة .

وتجدر الإشارة الى ان العرف الفرنجي لم يعترف بزواج الأرملة ، خاصة اذا كانت حاملا، ما لم تمض سنة على وفاة زوجها ، والا سيكون حدادها على زوجها المتوفى معيبا . وقد وجد الفرنج في هذا العرف سلاحا اشهرهه في وجه كونت فلاندرز فيليب الالزاسي (Philip of Alsace) الذي حضر الى المنطقة سنة ١١٧٧ لتزويج ابنتي الملك عموري الاول سبيللا وايزابيلا من ولدي احد اتباعه ، وذلك للسيطرة على مقدرات المملكة من خلال هذا الزواج . الا ان الفرنج اجهضوا خطة الكونت لأن الأميرة سبيللا كانت ارملة منذ ثلاثة أشهر اثر وفاة زوجها وليم امير مونتفerrat (William of Montferrat) (٧٠).

ربط الفرنج انفسهم عن طريق الزواج بمحاولات تحالف مع كل من مملكة أرمينيا وبيزنطة . فقد كانت أردا زوجة الملك بلدوين الاول ارمنية . كما تزوج جوسلين الأكبر كونت الرها ، من اخت الملك ليو (Leo) ملك ارمينيا (٧١) . وتزوج الملك بلدوين الثالث الأميرة ثيودورا (Theodora) ابنة أخ الامبراطور البيزنطي مانويل (Manuel) (٧٢). كما تزوج أخوه الملك عموري الاول الأميرة البيزنطية ماريّا كومنينّا (٧٣) وتزوج الامبراطور مانويل نفسه من أميرة انطاكية ماريّا ابنة خالة الملك عموري الأول (٧٤).

أما من جهة المسلمين فقد جرت محاولة لتزويج الملكة جوانا (Joanna) ملكة صقلية ، وأخت الملك ريتشارد قلب الاسد من الملك العادل بن أيوب شقيق صلاح الدين، لكنها باءت بالفشل (٧٥).

وفي النهاية نخلص الى ان المرأة أخذت بالحماس الذي ألهم القارة الأوروبية في أواخر القرن الحادي عشر وأفرز الحركة الصليبية . فقد رافقت النساء الحملات العسكرية الى الشرق الاسلامي وواجهن العديد من المصاعب كالقتل والسبي على يد اعداء الفرنجة ، او كالأبعاد عن المعسكر على يد الفرنجة أنفسهم .

وبعد ان تأسست الامارات الفرنجية في بلاد الشام تمتعت المرأة الفرنجية بذات الحقوق التي تمتعت بها المرأة في اوروبا . الا ان المتاعب التي جابهتها فاقت تلك التي عانت منها المرأة الاوروبية . وبسبب الطبيعة الحربية للمجتمع الفرنجي كانت حرية النساء اللواتي وصلن الى السلطة محدودة جدا ، لأن مجتمعا حرييا يحتاج الى محاربين ، ولهذا فقد كن ينتقلن مع التاج او مع الاقطاع من زوج لآخر على كره منهن . ولما كانت الارستقراطية الفرنجية مضطرة للتزاوج من بعضها البعض بالرغم من ضيق دائرتها ، فقد كان من الصعب تجنب الزواج بين الاقارب ، الامر الموضح والمحدد في القانون الكنسي ، واصبح الغاء الزواج امرا في غاية السهولة .

وقد عانت نساء العامة من الفقر والاسر والعبودية ، وتحملت المرأة بسبب الافكار السائدة لدى الفرنجة وزر انتكاساتهم واخفاقاتهم ، باعتبارها التجسيد المادي لللاثم والرديلة .

وباختصار فقد كان تاريخ المرأة الفرنجية سلسلة من المصاعب والاهانات فرضت بعضها الافكار التي انتقلت مع الفرنجة من اوروبا ، وفرضت البعض الاخر الضرورات العسكرية والاوزاع غير العادية التي عاشها الفرنج في الشرق .

الهوامش

August. C. Kery, The First Crusade: The Accounts of Eye Withnesses and Participants, (١)
London - Princefton, 1921, p. 48.

Fulcher of Chartaers, A History of The Expedition to Jerusalem 1095 - 1127 translated (٢)
by Frances Rita Rayan, the University of Tennessee press, Knoxville, 1969, p. 70.

Ibid, p. 74 ; Krey, p. 45. (٣)

William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond The Sea, 2 vols, Translated by Emily (٤)
Atwater Babcock and A . C. Krey, Columbia University press, New York, 1943, vol.
I, p. 79.

Ibid, pp. 101 - 104; Krey, pp. 49-51. (٥)

Fulcher of Charters, pp. 94 - 95. (٦)

سعيد احمد برجاي، الحروب الصليبية في المشرق، دار الاوقاف الجديد، بيروت، ١٩٨٤، ص، ١٩٤. أما الدانشمانيون فهم
سلالة تركمانية ترفع نسبها الى عبد الله البطال الذي استشهد في موقعة مع البيزنطيين سنة ١٢٢ / ٧٤٠، هاجم جدهم الملك
دانشماند أحمد غازي آسيا الصغرى، بالتحالف مع قليج أرسلان واسس فيها مملكة كانت حاضرتها سيواس، واستمرت حتى
قضي عليها قليج أرسلان الثاني سنة ١١٧٤ / ٥٧٠ (J.H. Mordtmann" Danishmandiya," E.I.¹)

Fulcher of Charters, pp. 94 - 95. (٧)

Marina Warner, Alone of All Her Sex, ونظرة الفلسفة المسيحية للمرأة انظر. (٨)
Vintage Book, New York, 1983.

- (٩) دور يليوم : مي اسكي شهة الحالية في اسيا الصغرى
(J.H. Mordtmann, "Eskishehir", E.I¹ .
- (١٠) Fulcher of Charters, p. 85.
- (١١) Ibid, pp. 94-95.
- (١٢) Steven Runciman, A History of the Crusades, Cambridge, 3 vols, Cambridge University press, 1979, Vol. 1, p. 185.
- (١٣) Fulcher of Charters, p. 192.
- (١٤) P. M . Holt, The Age of the Crusades, Congman, London and New York, 1986, pp. 31 - 38.
- (١٥) سعيد عاشور، الحركة الصليبية ٢ ج، مكتبة الانجلو مصرية القاهرة، ط ٣ ١٩٧٨، ج ١، ص ٤٦٧—٤٦٨.
Runciman, Vol. II, p. 299.
- (١٦) William of Tyre , vol. II, p. 204 ; Runciman, vol. II, p. 233.
- (١٧) William of Tyre vol. II, pp. 205 - 207 ; Runciman, Vol. II, p. 233.
- انظر ايضاً : ابو الفرج جمال الدين بن العبري، تاريخ الزمان، نقله الى العربية الاب اسحق ارملة ، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٦٨.
- (١٨) William of Tyre, Vol. II, pp. 283.
- (١٩) Ibid, pp. 43 - 44.

Ibid, pp. 43 - 44 ; Robert L. Nicholson, "The Growth of the Latin State 1118 - 1144" in Kenneth M. Setton, A History of the Crusades, 4 vols, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1955, vol. II, p. 341.

William of Tyre, Vol. II, pp. 44 - 45 ; Nicholson, p. 431. (٢١)

William of Tyre, Vol. II, pp. 53 - 54, Runciman, Vol. II, p. 188 - 190. (٢٢)

Runciman, Vol. II, pp. 198 - 1990. (٢٣)

William of Tyre, Vol. II, pp. 77-97 ; Runciman Vol. II, pp. 199 - 200., ابن العبري، ص ١٤٦، (٢٤)

William of Tyre, Vol. II, pp. 34. (٢٥)

Runciman, Vol. II, pp. 202, 213. (٢٦)

William of Tyre, Vol. II, pp. 214 - 215 ; Runciman, Vol. II, pp. 332 - 333, 354. (٢٧)

William of Tyre, Vol. II, pp. 300-301. (٢٨)

Ibid, pp. 52 - 53, Runciman, Vol. II, p. 407. (٢٩)

(٣٠) كان وليم الصوري مؤدباً للملك بلدوين الرابع، وكان يشكل خطراً على أجنبي وهيراكليوس وحاشيتهما. وقد أغضبه ترشيح هيراكليوس الذي تنقصه أدنى مقومات رجل الدين. فقد كان على سبيل المثال، إضافة الى أميته، على علاقة مع زوجة تاجر في نابلس تدعى باسكيادي ريفيري (Paschia de Revei) التي عرفت في طول البلاد وعرضها باسم سيدة البطريركية. أما هيراكليوس فقد أصدر قراراً بحرمان وليم الصوري فذهب الأخير الى روما شاكياً وتوفي هناك انظر:

Runciman, Vol. II, pp. 423 - 425.

Runciman, Vol. II, pp. 425-426. (٣١)

Marshall W. Baldwin, "The Decline and Fall of Jerusalem", in Setton History of the Crusades, Vol. II, p. 604 ; Runciman, Vol. II, pp. 443 - 444. (٣٢)

William of Tyre, Vol. II, pp. 201 - 202. (٣٣)

Runciman, Vol. II, p. 330. (٣٤)

(٣٥) العماد الكاتب الاصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح، بلا تاريخ، ص ٨٥ ، شهاب الدين ابو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ابو شامة)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ٢ ج، دار الجبل، بيروت، بلا تاريخ، ج -، ص ٧٩. Runciman, Vol. II, pp. 455 - 456, 460.

Runciman, Vol. III, pp. 393 - 494, 407, 421 ; P. M. Holt, The Age of The Crusades, p. 103 ; P. M.. Holt" Qalawuns Treaty with Acre in 1283", in The English Hitory Review, Vol. XCI, October 1976, No. CCCIXI. pp. 802 - 812. (٣٦)

عاشور، ج -، ص ١١١٣

William of Tyre, Vol. I, pp. 461 - 462, 498, 513 - 514; Runciman, Vol. II, p.. (٣٧)

عاشور ج ١، ص ٣٢٦ : ٣٢٨

وحول تقديم النساء مهوور لازواجهن انظر :

Susan Mosher Stuard" Women in Charter and Statute Law" in women in Medieval Society, Ed. S.M. Stuard University of Pennsylvania press, 1976, pp. 199 - 208.

Willian of Tyre, Vol. II. p. 426. (٣٨)

Ibid, p. 513 - 514. (٣٩)

Runciman, Vol. II, p. 178. (٤٠)

Robert Of Clari, The Conquerst of Costantinople Translated by Edger Holmes Mc (٤١)

Neal, Columbia University Press, 1936, p. 62. Runciman, Vol. II, pp. 447 - 448.

Three Old French Chronicles, translated by Edward Noble Stone, Washington, 1939, (٤٢)

p. 198 ; The Crusade of Richard I, Selected and arranged by T.A.Archer, New York,

London, 1889, pp. 233 - 234.

ابن العبري. ص ٢٢٣

Geoffrey of Vinsauf "The Crusade of Richaerd I" in Chronicl of the Crusades, London, (٤٣)

1848, pp. 139 - 141.

Three Old French Chronicles, p. 62. (٤٤)

Runciman, Vol. II, pp. 171 - 173. (٤٥)

William of Tyre, Vol. II, pp. 123 - 124. (٤٦)

Geoffrey of Vinsauf, p. 128. (٤٨)

Edward Peter ed, Christian Society and the Crusaders, University of Pennsylvania, (٤٩)

Philadelphia, 1971, p. 96.

The Crusade of Richard I, pp. 17 - 18. (٥٠)

(٥١) العماد الاصفهاني، ص ٣٤٥.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٧ : ٣٤٨.

- Geoffrey of Vinsauf, p. 271 ; The Crusade of Richard I, p. 219. (٥٣)
- The Crusade of RichardI, pp., 133 - 134. (٥٤)
- Ibid, p. 134. (٥٥)
- Three Old French Chronicles, p. 62.. (٥٦)
- William of Tyre, Vol. II, pp. 74 - 77. (٥٧)
- (٥٨) العماد الاصفهاني، ص ١٣٥ : ١٣٦، أبو شامة، ج ٢، ص ١١٥. يذكر جيوفري فيننساوف ان عدد من استبعد من الاسرى بلغ حوالي اربعة عشر الفا. ويكاد هذا الرقم يطابق ما ورد لدى العماد الاصفهاني والمصادر الاسلامية التي اعتمدت عليه انظر: Geoffrey of Vinsuf, p. 79.
- (٥٩) العماد الاصفهاني، ص ١٢٨، ٢٥١، أبو شامة، ج ٢، ص ٧٩، ٩٥، ١٣٠، — ١٣١.
- (٦٠) طه تلجي الطراونه، مملكة صفد في عهد المماليك، دار الافاق الجديدة، بيروت ١٩٨٢، ص ٦٥ — ٦٦.
- William of Tyre, Vol. I, pp. 461 - 462. (٦١)
- Ibid, Vol. II, pp. 76 - 77. (٦٢)
- William of Tyre, Vol. II, pp. 132 - 134 ; Runciman, Vol. II, p. 231. (٦٣)
- William of Tyre, Vol. II, pp. 264 - 271. (٦٤)
- Ibid, p. 301. (٦٥)
- Edward Peters, p. 55. (٦٦)

Jo - Ann Mc Namara and Suzanne F. Wemple, " Marriage and Divorce in the Frankish (٦٧) Kingdom", in Women in Medieval society, pp. 95 - 124.

James A. Brundage "Marriage Law in the Latin Kingdom of Jerusalem" Outremer (٦٨) Studies in the History of the Crusading Kinfgdom of Jerusalem Edited by B.Z. Kedar et al, Jerusalem 1982, pp. 258 - 271.

(٦٩) على سبيل المثال : بينما كان تانكرد (Tancard) أمير الجليل يحتضر نصح زوجته سيسيليا (Cecilia) ابنة الملك الفرنسي فيليب (Philip) ان تتزوج الامير الشاب بونز (Pons) ابن كونت طرابلس برترام (Bertram) فوافقت وتم الزواج سنة ١١١٢. وتتزوج هوج بوزيه (Hugh of Puiset) كونت يافا من أمّا (Emma) أرملة يوستاس جارنر (Eustace Garnier) صاحب صيدا سنة ١١١٩. وتتزوج جوسلين الثاني من بياترس (Beatrice) أرملة وليم صاحب صهيون (William of Sahyun) سنة ١١٣٢. وتتزوج عموري كونت يافا وعسقلان (الملك عموري الأول فيما بعد) من أجنبي ابنة جوسلين الثاني بعد وفاة زوجها الاول رينالد المرعشي (Resnald of Marash) سن ١١٤٩. وتتزوج أرناط (Arnold of Chatillon) من الأميرة كونستانس أرملة ريموند وريثة عرشه انطلاقية سنة ١١٥٣. ثم تتزوج الأميرة ستيفاني ملي (Stephanie of Milly) أرملة همفري صاحب تبنين (Humphry of Toron) وريثة عرش الكرك والشوبك. وتتزوج مانساس قريب الملكة ميلراند اسكيفا (Helvis Eस्कiva) أرملة والتر أمير الجليل سنة ١١٧٤. وفي العام نفسه تزوج باليان البلين (Balian Ibelin) من الملكة ماريا كومينيا (Maria Commena) أرملة الملك عموري الاول. انظر .

Runciman, Vol. II, PP. 191, 234, 362, 396, 40; Holt, The Age of the Crusades, pp 33 - 34.

William of Tyre, Vol. II, p. 52. (٧١)

(٧٢) ترملت ثيودورا عندما كانت في السادسة عشرة ، ثم وقعت في هوى أحد ابناء عمومتها ويدعى اندرونيكوس (Andronicus) فتزوجا واصدرت الكنيسة قراراً بحرمانهما فعاشا في بلاد المسلمين واعطاهما نور الدين زنكي قلعة في اسيا الصغرى [Three Old French Chronicles, p. 350].

William of Tyre, Vol. II, p. 425. (٧٣)

Runciman, Vol. II, pp. 359 - 360. (٧٤)

Runciman, Vol. III, p. 59. (٧٥)